(السنة الرابعة عشرة)

العدد الأول — يناير - مارس ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

المـــدير — محمد نجيب عتمان

رئيس التحرير — محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

وكيل كلية دار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العـــدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

"إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

النقد في الأدب العربي

للأستاذ السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

رابعا — فى العصر العباسى

٢ — العهد الثانى

من ٢٣٢ — ٣٣٤ هـ

خالطت العرب بعد تمام الفتح فى العهد الأموى أشتاتا من الأمم مختلفين فى أجناسهم ودياناتهم وفى لغاتهم واجتماعياتهم ، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس بعد ذلك الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وما وراء فارس ، فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ، ولكن تأثرهم لم يبد واضحاً فى ذلك العهد لقصر زمنه، ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجام اقتداء بخلفائهم وذوى الأمر فيهم ، فبقيت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها ، ولكن حين ذهبت تلك العصبية وهذى النعرة بمجىء العهد العباسى ، أخذ هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره فى كثير من نواحى الحياة ذات التأثير البين فى اللغة آدابها وعلومها ، وبالتالى فى النقد الأدبى . والذى يهمنا أن نقول هنا ، هو أن اللغة العربية كان لها على العهد الأموى بحكم التوسع فى الفتح وبسط النفوذ والسلطان طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان ، أزال منها ما أزال وأبقى ما أبقى ضعيف المقاومة [illegible] أبناء الفاتحين آمنين على نفوسهم

وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين ، أما لغاتهم فما كان ليأخذ بيدها ما صاروا إليه من ضعف وما كانت لتجد من رجال الدولة إلا الرغبة الملحة فى خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الاعجام ، وترفعهم أن يلوا مثل ما يلى أولئكم من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزاً قوياً وسداً محكماً دون أن يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار .

ولكن لما جاء العصر العباسى وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة العجم ومشاركتهم إياهم فى الأعمال ، فقد حل عن عنق اللغات المغلوب أهلوها ما كان مضيقاً عليها من خناق ، فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان ، وما ينبغى أن يكون عليه ذووها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حينا وانقلبت هى بعد ذلك غازية تريد الانتقام ، حتى عقد لها لواء النصر فى التغلب على ألسنة السواد ، وتسربت بما كان من التوسع فى وضع العلوم وحركة النقل ، إلى التأليف والتصنيف ، فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب ، وكان أن وجدت فوق هذين سبيلا تظهر فيه أحيانا على ألسنة الأدباء ناثرين وشاعرين ، على أن أبناء تلك الأمم لم يلبثوا أن جاروا سلائل العرب فى مضمار الأدب ، فكان منهم الكتاب والشعراء ، ثم بذوهم فى مضمار العلم فكانوا أكثر منهم عدداً وإنتاجا فى التأليف والتصنيف ، هـذا إلى أن أدباءهم كانوا اللقاح الأدبى الجديد ، كما كان علماؤهم التراجمة الماهرين فيما نقل إلى العربية من علم دخيل .

وعلى الرغم من بدء هذا التأثير الجديد فى الأدب بمجىء العصر العباسى وظهور أثار له فى عهده الأول لم يبد واضحاً جلياً إلا فى هذا العهد الثانى الذى نحن بصدد الكلام فيه ، حيث بدا أدب جديد وسم الأدب السابق إزاءه - جاهليه وإسلامه - باسم الأدب القديم ، وكما بدا هذا الفارق فى أدب القدامى والمحدثين ، بدا كذلك فى نقد النقاد فكانوا أيضاً قدامى ومحدثين ،

وهانحن أولاء عاملون على تصوير هذه الظواهر الجديدة قبل التأريخ للنقد فى هذا العهد لما بين الأمرين من روابط وصلات .

١ - لعل أول انتقاض بدا من الشعراء المحدثين على الشعراء الأقدمين كان حملتهم على ما كان لأسلافهم فى ديباجة القصيدة ، حيث كانوا يبتدئونها فى كل الأغراض - جاهلية وإسلاما - إلا الرثاء بالتشبيب الذى يتناول الوقوف بالديار والأطلال ، والتألم لمفارقة أصحابها لها ، وسير الابل مفرقة أو محققة للقاء ، إلى ما يأتى خلال ذلك من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزلين ، ولا شك أن أول باعث للمحدثين على التفكير فى ذلك ، كان أن الحياة الجديدة لم تعد تبيح فى هذا ما كانت تبيحه الحياتان الجاهلية والاسلامية فاذا صح للنابغة حين ارتحل من البادية لمدح النعمان ، ولجرير حين غادر اليمامة ، لمدح عبد الملك ، أن يقفا بالأطلال ويشببا بصواحبها من نساء ، وأن يصفا الناقة وما لقيا فى قطع الصحارى عليها من أهوال ، فانه لا يحمل بأبى نواس بل لا يصح منه أن يذكر شيئاً من ذلك فى مدح الرشيد وهو مقيم معه ببغداد ، لذلك رفع أبو نواس عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم ، ويطلب إليهم فى سخرية لاذعة هجره إلى ما أصبح يلائم الجديد ، فبينما تراه يجبه من يقف على الطلول فيقول .

تبكى على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى من بنو أسد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ... ولاصفا قلب من يصبو إلى وتد

إذا هو يشمت بتفاعيل الرياح والأمطار فى الرسم حيث يقول :

دع الرسم الذى دثرا ... يعانى الريح والمطرا
ألم تر مابنى كسرى ... وسابور لمن غبرا

فاذا هو يطلب أن يكون البديل شيئاً أشبه بالحضر هو عنده أول مايكون الخمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم يفعل ذلك فى قصائده ، مشركا معه هذا التبديد تارة كما فى قوله :

لا تبك رسما بجانب النـد ولا تجد بالدموع للجرد
إلا تعرج على معطلة ولا أثاف خلت ولا وتد
ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
عهد صفقت تمارقه في ظل كرم معرش خضد
ثم اصطبح من أسيرة حجبت عن كل عين بالصون والرصد
محجوبة في مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

أو مكتفياً بالتنبيه تارة أخرى كما في قوله

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتني زينب وكعوب
ولكن سبتني البابلية إنها لمثلي في طول الزمان سلوب

وكثيرا ما كان يقصد إلى الخمر قصداً كأن يقول :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها لومسها حجر مسته سراء

ولما حبسه الخليفة على ذلك عاد إلى ذكر الأطلال ولكن بمثل هذا الأسلوب الذي يقول فيه :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طال ماأزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أرد له أمراً
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركباً وعراً

وقد أثرت هذه الحملة في بعض شعراء عصره تأثيراً كان من شأنه اتباعه في بدء القصيدة بذكر الخمر ، وكان هو على رأس هؤلاء ، وبقي بعض على البدء بالتشبيب كما كان يفعل الأقدمون ، ولكن مع تصرفه في باقي القصيدة تصرف المحدثين وعلى رأسهم مروان بن أبي حفصة ، على أنه كان هناك بعضان آخران ، بعض قليل ترك بدء القصيدة بتشبيب القدامى وبذكر الخمر معا وبدأها بنفس الغرض المقصود كأبي العتاهية في كثير من قصائده ، وبعض أقل بدأها بالتشبيب وسار في سائرها سيرة الجاهليين كدعبل الخزاعي ، كما ترى ذلك في قصيدته التي مطلعها :

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا

فانه بعد أن أنهى ذلك المطلع بالتشبيب، قال ماقال فى بذل المال للثناء

قالت سلامة أين المال قلت لها ألمال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
هذى سبيلى وهذا فاعلمى خلقى فارضى به أو فكونى بعض من غضبا

ونحن وإن حمدنا لابى نواس وأضرابه هذه الخطوة نحو التجديد، فانا نراها خطوة قصيرة، إذ وقعت منهم فى تغيير ديباجة الشعر من تشبيبية إلى خمرية كأن وجود الديباجة أمر محتوم، وما كان عليهم من نقد لو عملوا على محو الديباجة جملة والدخول مباشرة فى الموضوع كما فعل فى بعض قصائده ذلك البعض القليل.

٢- ذاك مظهر للتجديد فى الشعر، وهناك مظهر ثان حاوله المحدثون فى الشعر أيضا، ولكنه جاء فى أوزانه وقوافيه، فقد أثبت الاستقراء أن كل ماقيل من الشعر فى الجاهلية والاسلام إلى آخر العهد الأموى لم يخرج بحال عما استنبطه الخليل فى الاوزان والقوافى، ولكن بعض محدثى الشعراء منذ أوائل العهد العباسى نظموا من أوزان غير الأوزان القديمة وأحدثوا فى القوافى مالم يك له نظير سابق، فقد نظموا على مقلوب تفاعيل بعض البحور كالمستطيل مقلوب الطويل، والممتد مقلوب المديد، وأوجدوا تفاعيل أخرى مما أسموه الدوبيت والسلسلة والموشح وغيرها، كما أوجدوا فى القافية ماعرف بالمزدوج والمشطر والمسمط. ولكن بالرغم من هذه المحاولات الجديدة ونظم بعض المحدثين منها، بقيت جمهرة الشعراء بعيدة عن أن تعتد بها وتنظم عليها. على أنها فى ذاتها ليست بالتجديد الحق، إنما الحق فى التجديد من هذه الناحية كان بأن يفطن المحدثون إلى قوالب أخرى للتجديد بحيث توجد فى الشعر العربى - وهو غنائى كله - نوعى الشعر الآخرين القصصى والتمثيلى، كما فعل شعراء قدامى اليونان وهو كثير وكما فعل بعض شعرائنا المعاصرين «شوقى» فى الشعر العربى نفسه وإن كان ذلك جد قليل.

٣- واليك مظهرا ثالثا للتجديد جاء فى سعة الخيال وجدة المعنى، كهذا الذى

يقوله بشار فى فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف .

كأن فؤاده كرة ترامى حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شىء مخافة أن يكون به لذار
أقول وليلتى تزداد طولا أما لليل بعدهم نهار
جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

والذى يقوله إسحق بن ابراهيم الموصلى فى الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر
وما كان هجرانى لها عن ملالة ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وكالذى يقوله أبو نواس فى الخمر .

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة فى كف جارية مشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
كأسا إذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمرتها فى العين والخد

والذى يقوله ابن المعتز فيها أيضا من حديثه عن الساقى .

وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا نورا من الماء فى نار من العنب

ثم الذى يقوله ابن الرومى فى صانع الزلابية

ومستقر على كرسيه تعب روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحرا يقلى زلابية فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب

٤ — ومع ما أبلى المحدثون فى هذه الناحية كانوا لا يزالون يعتقدون أن المعانى للقدماء ، وأن الأول لم يترك للآخر فيها شيئا ، ولذلك انساقوا إلى مظهر رابع جعلوا كل همتهم فيه ، هو مظهر الصياغة الفنية التى يرمون بها إلى تجميل

الأسلوب ، ومن ثم أخذوا يبحثون عما جاء عفوا فى الأدب القديم من من أنواع الجمال ، وإمامهم فى ذلك القرآن الكريم ، فوجدوا فى أمثال الآيات « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ، « وأقم وجهك للدين القيم » ، « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة » ما عرف بعد باسم التجنيس ، وفى أمثال الآيات « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » و « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا » ، « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » ما عرف باسم المقابلة والطباق ، وأمثال الآيات « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » ، « واشتعل الرأى شيبا » ما وقعت فيه الاستعارة . كما وجدوا أمثال ذلك فى الشعر جاهليه واسلاميه كقول امرىء القيس :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسنى من دائه ماتلبسا

وقول جرير

وما زال معقولا عقال عن الندى وما زال محبوسا عن الخير حابس

وكقول عمرو بن كلثوم

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

وقول الفرزدق

وإنا لنمضى بالأكف رماحنا إذا أرعشت أيديكم بالمعالق

وكقول طفيل الغنوى

وجعلت كورى فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل

وقول الأخطل :

إذا لم تذد ألبانها عن لحومها حلبنا لهم منها بأسيافنا دما

نعم وجدوا أمثال ذلك مما رأوا فيه جمال الأسلوب فانكفئوا يحاكونه جاهدين ويكثرون من الأمثلة فى تلك المحاكاة

كأن يقول ابن الرومى

للسود فى السود آثار تركن بها وقعا من البيض يثنى أعين البيض

ويقول البحترى

فان صدقت عنا فربت أنفس صوادإلى تلك الوجوه الصوادف

ويقول أبو تمام :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدى على ساكنى نجد

ويقول أبو نواس

فما السلاف ازدهتنى بل سوالفه ولا الشمول دهتنى بل شمائله

وكأن يقول مسلم :

مستعبر يبكى على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

ويقول أبو تمام :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر

ويقول أيضا :

ياأمة كان قبح الجور يسخطها دهرا فأصبح حسن العدل يرضيها

ويقول دعبل :

لاتعجبى ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

ويقول البحترى

فاذا حاربوا أذلوا عزيزا وإذا سالموا أعزوا ذليلا

وكأن يقول أبو نواس

مازلت أستل روح الزق فى لطف وأستقى دمعه من جفن مقروح

حتى انثنيت ولى روحان فى جسد والزق منطرح جسم بلا روح

ويقول أيضا :

فاذا بدا اقتادت محاسنه قسرا إليه أعنة الحدق

ويقول البحترى

وصاعقة فى كفه تنكفى بها على أرؤس الأقران خمس سحائب

يكاد الندى منها يفيض على العدى لدى الحرب فى ثنيى قناوقواضب

ويقول ابن المعتز

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

الى غير تلك الشواهد فى كثير مما قالوا ، وكم كان يكون جميلا لو لم تسقهم المبالغة فى الوان هذا الخيال إلى التعسف فى طلبه ، والغض من شأن المعانى فى سبيل تحقيقه ، مما قرب بهم من التكلف الذى خرفيه خلفاؤهم بحكم المحاكاة لهم فيه إلى الأذقان .

بتلك الظواهر وغيرها وجد أدب جديد ، وبوجود هذا الأدب الجديد اختلفت نظرة النقاد إليه عن نظرتهم إلى الأدب القديم ، واشتدت حمقه الخصومة بينهم بهذا الاختلاف ، على أنه كان لاختلاف ثقافة النقاد ولاختلافهم مع ذلك فى الامزجة والميول ، أثر بالغ فى اشتداد ذلك الخلاف ، ولذا انبغى من أجله أن نقسم النقاد حيث الكلام على النقد فى هذا العهد طوائف أربعا ، لكل ميل واتجاه ، هى طائفة اللغويين الأدباء ، وطائفة الشعراء الادباء ، وطائفة العلماء الادباء ، ثم طائفة الفلاسفة الادباء ، وإليك عن كل مايشرح الميل ويعين الاتجاه .

أولا أدباء اللغويين كان هؤلاء اللغويون الأدباء ، فى هذا العهد العباسى الثانى ، ورثة أسلافهم فى العهد الأول بالمصريين البصرة والكوفة ، ولكنهم تجاوزوهما إلى حاضرة الخلافة بغداد ، وإلى كثير من الأمصار غيرها ، فكان فيهم بالبصرة أبو سعيد السكرى راوى البصريين ، وبالكوفة أبو العباس ثعلب راوى الكوفيين ، وكان منهم ببغداد كثير ، كأبى حاتم السجستانى وأبى الفضل الرياشى ، ثم كان منهم بمرو عاصمة خراسان أبو العميثل مؤدب أولاد الطاهريين . وكانوا يتولون تدريس اللغة وأدبها للناس فى المساجد ، وكثير منهم تولى تأديب أبناء الخلفاء ومن على التشبه بهم من ذوى الجاه والنعمة واليسار ، أمراء ووزراء وغيرهم من الأعيان ، ولم تحد هذه الطائفة كثيراً عن خطة أولئك الاسلاف ، من حيث اعتقادهم فى أنفسهم أنهم الحفظة على اللغة ، الأمناء على تراثها ، الدافعون عنها عوامل الفساد والانحلال ، وبذلك انحصر جهدهم فى هذه الناحية أو كاد ، فأبو سعيد السكرى جمع أشعار جماعة من الفحول كامرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فضلا عن أشعار هذيل ، وأبو العباس ثعلب جمع طائفة أيضاً من أشعار الفحول كالأعشى والنابغتين

والطرماح وطفيل ، وأبو حاتم السجستانى وأبو الفضل الرياشى كانا من كبار رجال اللغة ورواة الشعر، وقد عنى كلاهما بالرواية عن هؤلاء الأئمة المشهورين، أبى زيد وأبى عبيدة والأصمعى ، وكذلك كان أبو يوسف يعقوب بن السكيت من أكابر أهل اللغة الذين لقوا فصحاء الأعراب ، وقد أخذ عن أبى عمرو الشيبانى وابن الأعرابى ، وكان مؤدب ولد المتوكل ، وقد اقتدى بهؤلاء فى خطتهم اللغوية الأدبية جماعة عرفوا باسم النسابين أو الاخباريين كمحمد بن حبيب جامع أشعار القبائل ، والزبير بن بكار راوية الشعراء الحجازيين ، وأبى خليفة الفضل بن الحباب الجمحى راوية كتب خاله محمد بن سلام .

وقد انتهت خطة هؤلاء جميعاً إلى التركز فى هذه النواحى الثلاث :ـ

الأولى ـ أنهم من أنصار القديم الذين لا يرضيهم إلا ما أرضى الأصمعى وأمثاله من السلف ، ولا يتذوقون الشعر المحدث إلا بقدر ، كما لا يتعرضون لشعرائه ونقدهم إلا فى النادر القليل ، ولذلك هم يجعلون الشعر القديم من جاهلى وإسلامى هو المثل الأعلى للشعر ، وإن آثروا محدثا برضا وتفضيل لم يك ذلك إلا لجريانه مجرى القديم .

والثانية ـ أن القاعدة عندهم فى التفضيل هى جودة المعنى وجزالة اللفظ كما يتمثل ذلك فى شعر الفحول من الجاهليين والاسلاميين .

والثالثة ـ دينهم أن الشعر المحدث هو محل الزلل من الاحالة والتكلف والغلو والاسفاف ، وهم يضربون لذلك الأمثال من شعر أبى تمام ومن جاراه .

وقد انتهت هذه الطريقة لأدباء اللغويين إلى ممثلهم فيها الرافع لشأنها، أبى العباس محمد بن يزيد المبرد ، وخير آية له فيها كتابه « الكامل فى اللغة والأدب » ذو الأثر العتيد ، وهو كتاب أقل مايقال فيه إنه من أغزر كتب اللغة والأدب مادة وأجلها نفعاً وأكثرها شرحا لنفسه بنفسه ، وهو يمثل الأبحاث الأدبية مشربة باللغة والنحو والتصريف ، ويعنى أكثر ما يعنى بالقديم، أما الحديث فلا يعمد اليه إلا إذا جرى مجرى القديم أو تفرد

بأشياء ليس إلى إنكار استحسانها من سبيل ، وهاك بعض ما كان له فى القديم قال :

أحسن مامر للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم باجماع الرواة مامر لامرىء القيس فى كلام مختصر ، أى بيت واحد ، من تشبيه شىء فى حالتين بشيئين مختلفين وهو قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

فهذا مفهوم المعنى ، فان اعترض معترض فقال فهلا فصلى فقال كأنه رطبا العناب وكأنه يابسا الحشف ، قيل له ، العربى الفصيح الفطن اللقن يرمى بالقول مفهوما ويرى مابعد ذلك من التكرير عيا ، قال الله جل وعز وله المثل الأعلى « ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » علما بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون ووقت الاكتساب ، إلى آخر ماذكر بعد ذلك لامرىء القيس والنابغة وذى الرمة وغيرهم من الجاهليين الاسلاميين .

أما تعرضه فى كتابه للحديث فخير ماجاء فيه ذلك الباب الذى قال فى العنونة له « وهذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج اليها للتمثل لأنها أشكل بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبات والخطب والكتب » ثم شرع فى الاختيار فكان مما اختار لمحمود الوراق هذه الأبيات مع تعليقه عليها لتعلم بعض مواطن الاستحسان عند أبى العباس ، قال الوراق :

إنى شكرت لظالمى ظلمى وغفرت ذاك له على علمى
ورأيته أسدى إلى يدا لما أبان بجهله حلمى
رجعت إساءته عليه وإحسانى فعاد مضاعف الجرم
وغدوت ذا أجر ومحمدة وغدا بكسب الظلم والاثم
فكأنما الاحسان كان له وأنا المسىء اليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه حتى بكيت له من الظلم

وقال أبو العباس : أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش لرجل قال له « إنى مررت بقوم من قريش من آل الزبير يشتمونك شتما رحمتك منه » قال

أفسمعتنى أقول إلا خيراً قال لا قال إياهم فارحم ، وقال أبو بكر الصديق رحمه الله لرجل قال له لاشتمنك شتما يدخل معك فى قبرك ، معك والله يدخل لا معى ، وقال ابن مسعود إن الرجل ليظلمنى فأرحمه ، وقال رجل للشعبى كلاما أقذع له فيه فقال له الشعبى إن كنت صادقا فغفر الله لى وإن كنت كاذبا فغفر الله لك، ويروى أنه أتى مسجداً فصادف فيه قوما يغتابونه فأخذ بعضادتى الباب ثم قال :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

وذكر ابن عائشة أن رجلا من أهل الشام قال دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة لم أر أحسن وجها ولا سنا ولا ثوبا ولا دابة منه فمال قلبى اليه فسألت عنه فقيل لى هذا الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما فامتلأ قلبى له بغضا وحسدت عليا أن يكون له ابن مثله فصرت اليه فقلت له أأنت ابن أبى طالب فقال أنا ابن ابنه فقلت فبك وبأبيك أسبهما ، فلما انقضى كلامى قال لى أحسبك غريبا قلت أجل ، قال فهل بنا فان احتجت إلى منزل أنزلناك أو إلى مال آسيناك أو إلى حاجة عاونّاك ، قال فانصرفت عنه خجلا ووالله ماعلى الأرض أحد أحب إلى منه .

ثانيا — أدباء الشعراء — مالت طائفة من شعراء هذا العهد إلى الأدب، فجلوا فيه وشاركوا أدباءه ماكانوا عليه من فهم وبحث ، ثم فاقوهم فيما وهبه إياهم الشعر من رفاهة حس وصادق ذوق كأبى تمام وابن الرومى وابن المعتز. شاركت هذه الجماعة طائفة اللغويين الأدباء فى دراسة القديم والعناية به والبحث فيه ، ولكنها خالفتهم فى أنها لم تصدف صدوفهم عن الحديث، وإنما أقبلت عليه تروى شعره وتجرى مع تيار أدبه فكان لها على شعر المحدثين هذه الأفضال .

١ — عنوا بتحليل الشعر المحدث تحليلا وقفوا منه على صلته بالشعر القديم ، ثم على الخصائص التى ميزته منه فجعلت له عليه بعض الامتياز .

وعدوان ، ولذلك حين فضل شعراء المدينة على شعراء سائر المدن نسب ذلك فيهم إلى ما كان بين العنصرين العامرين لها وهما الاوس والخزرج من محاربة وخلاف .

وتراه فى العنصر الثالث وهو الاجتماعى قد فرق فى الطبقات بين الجاهليين والاسلاميين ، لما بين العهدين من تفاوت شديد فى أمور الاجتماع ، كما تراه فرق فى كلا العهدين بين شاعر وشاعر ، فلم يجعل عدى بن زيد على جاهليته بدويا لكثرة ما كان يؤم الحضر ويقيم فيه ، وجعل ذا الرمة على إسلاميته كبدو الجاهلية لشغفه بالبادية وإيثاره الاقامة فيها والتشبه بينها ، دون حضر المدن من الاسلاميين .

ثم تراه فى العنصر الرابع وهو التاريخى قد عنى أتم عناية بالشعر الموضوع على شعراء الجاهلية والاسلام ، فأفاض فيه وأطال ، مؤيداً ما يقول بالدليل والبرهان ، فحيث كان يبرهن على أنه لا شعر لثمود وعاد ، استخدم الدليل النقلى من قول القرآن « وأنه أهلك عادا الاولى وثمود فما أبقى » ومن أن اللغة العربية لم تكن ذات وجود على عهد عاد ، على أن عادا من اليمن وما كانت اليمن تتكلم بلغة عدنان ، ثم الدليل العقلى من أنه يستحيل على ثمود أن ينسب اليها شعر كالذى لم تعرفه طبيعة اللغة إلا قبيل الاسلام بنحو القرن والنصف ، حيث تم نموه بتقصيد القصيد ، وحيث كان يبرهن على أن هناك وضعا فى العصر الاسلامى رجع أسبابه إلى عصبية القبائل التى حرصت على أن تضيف لاسلامها ما يمكن لها فى ميادين التماجد والفخار ، وإلى رغبة الرواة أنفسهم فى أن يزيدوا فى مأثور الاشعار لشتى الاسباب .

تلك هى النواحى التى قام عليها أكثر ما قام كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام ، إلى أشياء أخرى ليست بالقليلة ، كان يرمى بها من نفسه فى ثنايا ما يقول ، وحسبك عن درجة ابن سلام فى ميادين النقد إدراكه أن للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف الصناعات ، وذلك حيث يقول فى بدء المقدمة من هذا الكتاب « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم

كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ماتثقفه العين ومنها ماتثقفه الاذن ومنها ماتثقفه اليد ومنها مايثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ واليـــاقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة ، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها ، ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه ، واختلاف بلاده وتشابه لونه وذرعه ، حتى يضاف كل صنف منها إلى بلده الذى خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف جيدة النهود واردة الشعر ظريفة اللسان ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار وبمائتى دينار وتكون أخرى بألف دينـار وأكثر وأكثر ولايجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، وتوصف الدابة فيقال خفيف البنان لين الظهر جيد الحافر فتى السن نقى العين فيكون بخمسين دينارا أو نحوها وتكون أخرى بمائتى دينار وأكثر وهذه صفتها ، ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء إنه لندى الحلق حسن الصوت طويل النفس مصيب اللحن ، ويوصف الآخر وأخرى وأخرى بهذه الصفة وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهى اليها ولا علم يوقف عليه ، وإن كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم به وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به .

ولاشك أن ابن سلام بما حصل من علم فيما مد له من عمر ، وبما رزقه فى هذا الباب من عظم هبة وحسن استعداد ، كان من أهل صناعة الشعر وثقافته إلى درجة مكنته بكتابه هذا أن يعبد الطريق وينيره أمام سالكيه بعده ، من نقدة الشعر وجهابذة الادب ، كما سترى إن شاء الله .

السباعى بيومى